

وهي أهل مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انقائها وجوده رصفها ،
وهذا هو الإعجاز الذي تفسر الألفاظ عن ادراكه (١) .

وكانت لمسألة إعجاز القرآن أثر كبير في تطور البلاغة العربية ، وكان المتكلمون
أول من بحثوا في الإعجاز ، واحتضت وجهات النظر في ذلك وتشعبت سبل القول ،
لأن الوصول إلى ذلك صعب ، وتحديد البلاغة في كتاب الله أصعب . ولكنهم -
مع ذلك - مضوا يظلمون بلاغة القرآن ويبينون إعجازه ، فكانت دراساتهم أحسن
مصدر لبلاغة وأجل مورد لمن أراد أن يتفوق للكتاب العزيز ويفهم البيان ؛
ومن أشهر الذين تناولوا هذه المسألة أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (- ٨٢٠٦هـ)
الذي ألف كتاب الإعجاز للقرآن في نظمه وتأليفه ، ولم يصل هذا الكتاب لتعرف
الوضوحات التي عالجها وإن كان يبدو من العنوان أنه يتحدث عن أسلوب كتاب
الله وإعجازه في النظم والتأليف :

ومنهم أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (- ٨٣٨٦هـ) صاحب رسالة التلخيص
في إعجاز القرآن ، وقد ذهب إلى أن للقرآن معجز بلاغته ، وهو أهل طبقات للكلام ؛
وأبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (- ٨٣٨٨هـ) مؤلف رسالة
وبيان إعجاز القرآن ، وقد رأى أن لبلاغة ترجع إلى جمال لفاظ القرآن وحسن
نظمه وسمو معانيه وتأثيره في النفوس :

ومنهم أبو بكر محمد بن الطيب البافلي (- ٨٤٠٣هـ) الذي ألف كتاب إعجاز
القرآن وهو من الكتب المهمة ، وقد ذهب للبافلي إلى أن كتاب الله معجز لأنه
نظم يخرج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب .

ولقاضي أبو الحسن عبد الجبار الاسدي (- ٨٤١٥هـ) الذي كان الجزء
سادس عشر من كتابه والمغني في أبواب التوحيد والعدل ، خاصا بإعجاز القرآن ؛
وقد ذهب إلى أن للقرآن معجز بنظمه ، وهي الفكرة التي بنى عليها عبد القاهر الجرجاني
كتابه دلائل الإعجاز .

وهذه الكتب وغيرها تعد من أهم مصادر دراسة البلاغة ، لأنها تعرضت لأسلوب
القرآن الكريم وتكلمت على أساليب العرب في الكلام وقد كان أثرها عظيماً في
تطور البلاغة واستغلالها من الدراسات الأدبية والفنية ؛

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .

المفسرون :

ويُتصل بالقرآن وأثره المفسرون، وهم الذين ينظرون في كتاب الله تعالى ويفسرون ألفاظه ويوضحون معانيه ويبيّنون مقاصده وأهدافه ، وبشرحون ما فيه من قيم رفيعة ونفقات عميقة، ويظهرون فنون القول فيه وروعة البيان ، ولكي يستطيع المفسر أن يقوم بهذا كله لابد من أن يطلع على علوم اللغة العربية ليتفادى أضرار القول ويتوصّل على معانيه: والبلاغة إحدى الوسائل المهمة التي تكشف أسرار الإعجاز وتوجه الآيات التي لا يمكن حملها على الظاهر: وقد شعر المفسرون بهذا العمل العظيم فأخذوا يضعون لدراساتهم للقرآنية مقدمات بلاغية أو يتفوضون في سباحتها حينما يتحدثون عن الآيات وبلاغتها، وصاروا ينهون إلى أهمية ذلك، ويضع ذلك في مقدمة تفسير الطبري وتفسير الكشاف لرمضاني، فقد أشار إلى أهمية معرفة البلاغة لأن القرآن عربي وأسلوبه عربي، ولكي تكون آياته واضحة ينبغي معرفة أساليب العرب وفنون القول عندهم : وقد نعى السكاكي على المفسر الذي لا يعرف من البلاغة شيئاً، قال: «الوقوف على تمام مراد الحكيم - تعالى وتقدس - من كلامه مفتقر إلى هذين للعلمين - اللغوي والبيان - كل الاضمار، فالويل كل قول لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل» (١):

وأصبحت كتب البلاغة ميلاً تلقني إلى رحاب القرآن، ومعالم يتهدني بها المدرسون ويستعين بما فيها من ومضات مشرقة ولمحات بدية المفسرون ومن هنا كانت البلاغة مقدمة لدراسة كتاب الله وتفسيره وإدراك فصاحته وبلاغته، وصار الأساتذة لا يقبلون على تدريس كتب التفسير إلا بعد أن يلم طلابهم بطرف من البلاغة وفنونها كما فعل يحيى بن حمزة العلوي حينما ألف كتابه «الطرز المنضج لأمرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» ليكون عوناً لمن شرع في قراءة تفسير الكشاف عليه .

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧.

وكتب التفسير كلها متصل بالبلادة، ولعل أهم تفسيره عنى بالبلادة «الكشاف»
 لبار الله محمود بن عمر الرمشري (٨٥٢٨ -) الذي جمع فيه كثيراً من فنون
 البلادة واستعان بها في فهم كلام الله وإظهار ما فيه من روعة وجمال:
 ويتصل بالقرآن الكريم الأصوليون وهم أصحاب الصناعة اللغوية في فهمهم
 لشرع الإسلام من كتاب الله وحديث الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -
 واستخراج أصول التشريع. وقد أثر هؤلاء في البلادة، وفي كتبهم بحوث مستفيضة
 عن الخير والإنشاء، والحقيقة والنجاة، وهي بحوث تدل على استتار علم أصول
 الفقه بها .

ومن الكتب التي عنيت بالبلادة وأثرت فيها كتاب «الرسالة» للإمام محمد بن
 أدريس الشافعي (٨٢٠٤ -) وكتاب «التعمد في أصول الفقه» لأبي الحسين
 محمد بن علي بن الغيب البصري المعتزلي (٨٤٣٦ -) وكتاب «المستصغى من علوم
 الأصول» للإمام أبي حامد محمد بن محمد اللزالي (٨٥٠٥ -)، وكتاب «الاحكام
 في أصول الأحكام» لأبي الحسن علي بن أبي علي سيف الدين الأحمدي (٨٦٣١ -).
 القويون والنحاة :

ومن الذين أثروا في نشأة البلادة وتطورها القويون والنحاة، وقد كانت لهم
 يد طويلة في ذلك، وظل دورهم مشهوراً منذ عهد الثورين واستطاعوا أن يسيطروا
 على مناهج التدريس ويرفضوا لواء التحالفات على اللغة ويردوا الحديثين وما ذهبوا
 إليه. وأخبار الخصومة بين الشعراء والقويين والنحاة مستفيضة، من ذلك أن ابن

أبي إسحاق اعترض على الفرزدق لرفع (مجلد) في قوله:
 وعضن زمان يا ابن مروان لم يدع
 من المال إلا مسحاً لو مجلد

فقال: علام رعت ومجلد؟ فرد الفرزدق: على مايسووك وبنووك، علينا أن
 نقول وعليكم أن تأولوا (١) وكان الخليل بن أحمد يقول لابن منافر: «إنما أتم
 معشر الشعراء تبع لي وأنا سكان السفينة، إن فرشتكم ورضيت فولكم تقفم

(١) طبقات شعراء ج ١ ص ٦٦ وما بعدها.

ولما كسبتم وقال ابن منابر: «والله لأقولن في الخليفة قسيمة امتدحه بها ولا
أحتاج إليك فيها عنده ولا إلى غيرك» (١).

وكانوا يستهينون بالنحاة ولا يقبلون أحكامهم، قال أبو أحمد العسكري:
«شبرنا أبو بكر محمد بن يحيى قال: حدثني علي بن العباس قال: رأيت البحرى
ومع دهر قال: ما هذا؟ فقلت: شعر الشغرى. قال: ولئى ابن نمي: قلت
أقرأه على أبي العباس أحمد بن يحيى: قال: رأيت أبا عياضكم هذا منذ أيام ظم
أز له علماً بالشعر مرضياً ولا نقداً له ورأيتته ينشد أبيتاً صالحة وبعدها إلا أبيتاً
لاستوجب التردد والاصحاب بها» (٢). ووقف بعض البلاغيين بوجه القويين
والنحاة أيضاً وسخروا منهم كإبن الأثير الذي قال وهو يتحدث عن ابن جني
«لكن القسامة والبلاغة غير فن الشعر والإعراب» (٣).

إن هذا الصراع بين القويين والنحاة والشعراء أفاد الأدب ودفع الجميع إلى
البحث والتفكير فكانت الكتب العظيمة والآراء السديدة: وإذا كان موقف الشعراء
يتم بالبلاغة، فإن القويين والنحاة أذروا في البلاغة، وكانت لهم وقفات محمودة
والفتايات بارعة دخلت كتب البلاغة فيما بعد. ومن أقدم الذين اهتموا بالبلاغة
وشواردها والنظر في الشعر واستخلاص قواعد معمر بن اللخمي (٨٢٠٨) المعروف
بأبي عبيدة، وفي كتابه «مجاز القرآن» كثير من الإشارات إلى فنون البلاغة وأساليب
التصوير.

ومنهم أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (٨٢١٦) الذي كانت له
آراء نقدية وبلاغية تمثل ذوقه وذوق عصره، ويتضح ذلك في كتابه «مفردات الشعراء»
وفي الآراء الكثيرة التي تناولتها كتب البلاغة والتقدم.

(١) الأملاني ج ١٨ ص ١٨٤.

(٢) المصون في الأدب ص ٤.

(٣) أمثل السائر ج ١ ص ٣٨٣.

وأبو العباس محمد بن يزيد الليردي (٨٢٨٥ -) الذي ذكر كثيراً من فنون البلاغة في كتابه «الكامل»، وكان كلامه على تشبيه من أوسع ما عرف في عهده، وقد صار عمدة البلاغيين حينما درسوا هذا الفن وقسموه ومثّلوا له :
وأبو الحسين أحمد بن فارس (٨٣٩٥ -) الذي كان كتابه «الصحاح» من أهم كتب اللغويين التي عرضت لموضوعات البلاغة، ولعله أول من تحدث بوضوح عن الخبر والانشاء حينما قسم الكلام إلى: خبر واستخبار، وأمر ونهي، ودعاء وطلب، وعرض وتحضيس، وتغنّ وتغيب (١). وتحدث عن موضوعات كثيرة أخرى كالخليفة والمجاز، والحذف والاختصار، والزيادة والتكرار، والتقديم والتأخير، والإعراس والإعلاء، والتعكم، والكتابة، والإفراط، والإستطراد، والتأكيد، وغيرها.

ومن النحاة الذين كانت كتبهم مادة خصبة للبلاغيين أبو بشر عمرو بن عثمان ابن قنبر (٨١٨٠ -) صاحب الكتاب المشهور .

وأبو زكريا يحيى بن زياد القرأه (٨٢٠٧ -) مؤلف «معاني القرآن» .

وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٨٢٩١ -) صاحب «تواعد الشعر» .

وعبد القاهر الجرجاني (٨٤٧١ - أو ٨٤٧٤) صاحب «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» .

وقد كانت كتب هؤلاء النحاة أثر في البلاغة لأنها عيّنت بالأساليب العربية وذكرت كثيراً من المصطلحات التي دخلت في كتب البلاغة وأصبحت مصطلحات علمية .

الشعراء والكتّاب :

وأثر «شعراء» في البلاغة، وقد كانوا يبنون بالنول ويمدون أشعارهم ويتحرونها منذ عهدهم الأول، وقد دلت الملاحظات البيانية على أنهم كانوا أصحاب ذوق ومعرفة عميقة بالشعر وورديته : ونما ذوقهم حينما تقدم بهم الزمن وكثرت ملاحظاتهم حتى إذا ما جابه العصر العباسي ودخل العرب حياة جديدة تطورت نظرهم إلى

(١) ينظر «الصحاح» ص ١٧٩ وما بعدها.

لشعر وإعراكمهم لما فيه من روعة وجمال أو تصنع وتطبع: وقد رُوِيَ أن بشر
ابن برد كان يقد الشعر ويشير إلى جيده وردبته، وأنشد قول الشاعر:

وقد جعل الأعداء يتفصوننا وتطمع فينا ألسن وعيون
ألا وإنما ليل، عصا عيزرة إذا غمزوها بالأكف ثلثين
فقال: والله لو زعم لها عصامخ أو عصا زبد، لقد كان جعلها جاقية عشة بعد
أن جعلها عصا، ألا قال كما قلت:

ودعجاء المحاجر من معدّ كان حديثها لمر الجحسان
إذا قامت بشيئها تنسست كان عظامها من عيزران (١)
وقال: ولم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس في تشبيه شيئين بشيئين في بيت
واحد حيث يقول:

كان قلب الطير رطباً وبابساً لدى وكرها العناب والخشف البالي
أعمل تقسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت:

كان مثار التسع فوق رؤوسنا وأسباقنا ليل تهاوى كواكبها (٢)
وفي كتب الأدب كثير من هذه الأحكام التي تدل على مكانة الشعراء في العصر
العباسي وتوجههم النقد والبيان. قال ابن المعتز: واليديع اسم موضوع لقنون من
الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء بالغة والشعر القديم فلا
يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو (٣). وقال ابن رشيق القيرواني: أهل صناعة
الشعر أبصر به من العلماء بأنته من نحو وغريب ومثل وغير وما أشبه ذلك، ولو
كانوا دونهم بدرجات، وكيف وأن قدر بهم أو كانوا منهم بسبب؟ وقد كان
أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يبرون مع خلف الأحمر حلبة هذه الصناعة، أهني
نقد، ولا يشقرون له غياراً لنفاذه فيها وحلقة بها واجادته لها (٤).

(١) الأغانى ج ٢٠ ص ١٥٥.

(٢) الأغانى ج ٣ ص ١٩٦.

(٣) الباق ص ٥٨.

(٤) السبعة ج ١ ص ١١٧.

وكان ابن المعتز (- ٢٩٦هـ) الشاعر العبسي أكثر الشعراء تأثيراً في البلاغة، فقد وضع كتابه «البدیع» الذي تحدث فيه عن خمسة فنون من البدیع هي: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها والذهب الكلامي. وتكلم على ثلاثة عشر فداً وسماها بحسن الكلام، وهي: الالتفات، والأعتراس، والرجوع، وحسن الخروج، وتأکید المدح، وتعامل العارف، والهزل يراد به الجحد، وحسن التضمين، والتعريف، وللكتابة، والأفراط في الصفة، وحسن التشبيه، وتروم مالا يترجم، وحسن الابتداء، وكانت هذه الفنون عمدة البلاغين فبنوا عليها كتبهم وذكرها مقالته ابن المعتز وأضافوا إليها فنوناً كثيرة.

ومن الشعراء الذين كانت لهم مشاركة في البلاغة الشريف الرضي (- ٤٠٦هـ) صاحب «تلخیص بیان في معجزات القرآن» و «المعجزات النبوية» وابن رشيق القيرواني (- ٤٦٣هـ) مؤلف «العمدة في بحار شعر وآداب وبقده» و «فراغة الذهب»:

وإن سنان الخفاجي (- ٤٦٦هـ) مؤلف «سر القصائد»:

ولسامة بن منذر (- ٥٥٨٤هـ) صاحب «البدیع في نقد الشعر»:

وإن أبي الأصم الحميري (- ٦٥٤هـ) مؤلف «تحرير التحيير» و «بدیع القرآن». وكان لكتاب أثر واضح في البلاغة، فقد صيغوا كثيراً من بحوثها بصيغة أدبية لا امتزوا به من أدب رقيق وخلق سليم. وهم الذين قال الجاحظ عنهم: «وأما أنا فلم أر قط أمثال طريفة في البلاغة من الكتاب فإنهم قد التصوا من الألفاظ ما لم يكن معوهاً وحشياً ولا سافلاً سوقياً» (١). وقال ابن رشيق: «الكتاب أرق الناس في الشعر طبعاً وألحهم تصديقاً وأحلام الألفاظ والظنهم معاني وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف وقد قيل: لكتاب دهاقين للكلام» (٢).

(١) البيان ج ١ ص ١٢٧.

(٢) السند ج ٢ ص ١٠٦.

وأعلنت للكتابة مكانة مرموقة منذ العصر الأموي وكان عهد المهدي للكتاب
(- 813) من انتهت إليهم رئاسة الكتابة في ذلك العهد. وكان ابن الفلقح (- 813)
من أثر في البلاغة وقلقت عنه كثير من الأقوال فيها. ولكن أبا جهمان جهم بن
بحر الجاحظ (- 820) من أكثر الكتاب تأثيراً في البلاغة، وذلك بما ذكره
في كتبه ولا سيما البيان والبيان والحيوانه من فنون بلاغية وأساليب بلاغية
وأصبحت دراسته لسائلها أساس البلاغين وإن كان لم يصبها بقا جليها بنوم على
التحليل الدقيق والتقسيم المنطقي الذي عرفته كتب المتأخرين.
ومن الكتاب الذين أثروا في البلاغة قدامة بن جعفر (- 837) مؤلف
وقد الشعر.

وإن ذهب الكاتب صاحب البرهان في وجوه البيان وهو الكتاب الذي طبع
قسم منه باسم وقد الشعر ونسب إلى معاصره قدامة بن جعفر.
وأبو حلال العسكري (- 839) مؤلف كتاب الصناعين أي : صناعة
الشعر والنثر.

وإن نالنا البغدادي (- 880) مؤلف البيان في تشبيهات القرآن،
وضياء الدين بن الأثير (- 837) صاحب المثل السائر في أدب الكتاب
والشاعر و الجامع الكبير والاستدراك.

وشهاب الدين محمود الحلبي (- 870) صاحب وحسن التوسل إلى صناعة
التوسل.
الكلمسون :

وأثر التكنون في نشأة البلاغة وتطورها، والتكنون أصحاب الصناعة كلامية
في مجملهم القرآن الكريم وتدلليهم على اعجازه واستباط المفاهيم والبيان بوجه.
وقد ظهر أثرهم مبكراً، وكان المترجم أظهر فرة أنت في البيان والتجويد في فن

القول: ولعل صحيفة بشر بن العسر (- ٢١٠هـ) من أقدم الآثار في ذلك (١)،
وقد تحدث فيها عن فن القول وأوضح فيها كثيراً من القضايا التي أصبحت صفة
البلاغيين والتفاد، من ذلك كلامه على الاستعداد للإنتاج الأدبي والإهتمام بتخير
اللفظ والمغنى وتحديد النازل التي يمر بها الأديب، وأولها منزلة البليغ التام الذي
يكسو عبارته جملاً يرجع إلى رسالة الألفاظ وعذوبتها وجزالتها وسهولتها ووضوح
المعاني والتسجيلها. وثانيها منزلة من لم تسغه طبيعته بالألفاظ اللطيفة والقوافي
الجميلة والمعاني الرائعة، وعليه أن يتأني ويؤجل الكتابة إلى وقت نشاطه و فراغ باله،
فإن كان له في الأدب طبيعة حقاً وإياه الكلام والثالث عليه الألفاظ والمعاني، والثالث:
منزلة من شح طبعه ونضبت بتأنيق القول عنده، وهذا لا يأتي بجيد الكلام مهما
حاول أو تكلف، وحري به أن يترك صناعة الأدب ويتحول إلى غيرها. وفي
الصحيفة حديث عن مطابقة الكلام للمتضى الحال، والمطابقة من أهم شروط البلاغة.

ومن المتكلمين الذين شاركوا في البلاغة وفن القول وأصل بن عطاء (- ١٣١هـ)
وعمر بن عبيد (- ١٤٤هـ) وسهل بن هارون (- ١٧٣هـ) والملاحظ الأديب
المزلي. وقد طبع هؤلاء وغيرهم البلاغة بطابع عقلي يعتمد على الاستدلال والشفقة
في التحليل والتقسيم .

وألف بعض فلاسفة المسلمين في البلاغة والتفقد، ولكنهم كانوا يفرقون من بحر
أرسطو طاليس، ويلخصون كتابه الشعرية و الخطابة. فقد اختصر كتاب الشعر
لكتيب (- ٢٥٢هـ) ولخصه أبو نصر الفارابي (- ٣٣٩هـ)، ولابن سينا (- ٤٢٨هـ)
رسالة في معاني الشعر، ولابن الهيثم (- ٤٣٠هـ أو ٤٣٢هـ) رسالة في صناعة
الشعر، ولابن رشد (- ٥٩٥هـ) تلخيص لشعر أرسطو.

ولكن اللوق العربي رفض مثل هذه الدراسات لأنها لا تحكم اللوق في الأدب
وقد صرح البحرني بذلك فقال :

(١) الصحيفة في البيان ج ١ ص ٢٥ وكتاب الصالحين ص ١٢٤.

البحث الثاني المدارس البلاغية

كانت العوامل الثلاثة في البلاغة كثيرة منها الادبية ومنها الكلامية ، وقد أدى هذا الاختلاف في الاثرات إلى ان تنبج البلاغة الاتجاهين أطلق عليهما اسم المدرسة الكلامية و المدرسة الادبية. وأمر هذين الاتجاهين أو المدرستين قديم، وقد به أبو هلال العسكري إلى منهجين في دراسة البلاغة، فقال :

وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين وإنما قصدت فيه تصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب، فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل (١) .
وقال السيوطي وهو يترجم لنفسه : وورثت البحر في سبعة علوم : للتفسير والمحدث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة المعجم وأهل الفلسفة (٢). ولو لم تكن معالم هذين الاتجاهين واضحة ما وجدنا العسكري يصرح بها في عهد مبكر، ورأينا السيوطي بعده يفرون يفسر بأنها درس البلاغة على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة المعجم وأهل الفلسفة. فما خصائص كل مدرسة؟ ومن أشهر أعلامها؟

المدرسة الكلامية :

كانت لفلسفة وعلم الكلام أثر في الفكر العربي والإسلامي، ولم يسلم علم من العلوم من الأثر الفلسفي والكلامي، وكان لبلاغة نصيب عظيم من ذلك الأثر فتركت الصلة منذ عهد مبكر بينها وبين المنطق والفلسفة، وأخذت هذه الصلة تزداد قرناً بعد قرن حتى بلغت أوجها في القرن السادس للهجرة وما بعده. وقد انعكس ذلك في لغزس البلاغي، فكانت المدرسة الكلامية التي اهتمت بالتحليل الدقيق والتضميم للفظ، وجعل التعريف جامعاً مانعاً، واستعمال أساليب المتكلمين

(١) كتاب الصاحين ص ٩ .

(٢) بحسب المعاصرة ج ١ ص ١٥٥ وما بعده.

في بحث الموضوعات وحصرها، والاكتثار من الالفاظ الفلسفية والمنطقية، وقد ساق البلاغيون كثيراً من المقولات (١) عند القول في الملكة حين وردت في تعريف القضاة والبلاغة، وما صدرتوا به البيان من بحث للدلالات الرضعية والعقاية. وأدخلوا فيها بعض مسائل الفلسفة الطبيعية والالهية والمنطقية كالكلام في الالوان والطعوم والروائح والحواس الانسانية وغيرها، والوهم والخيال والفكرة والحس المشترك والاسباب والمسببات وغيرها. وأدخلوا فيها من الالفاظ الفلسفية والكلامية الشيء الكثير، مما لا صلة له بالبحث البلاغي الذي يعتمد أول ما يعتمد على الفروق السليم.

ومن شواهد اثر الفلسفي في هذه المدرسة الالفاظ من الالمثلة الادبية، لان رجالها اهتموا بالتحديد المنطقي والحصر والتقسيم، فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاهداً واحداً أو مثالا قصيراً. وليتهم وقفوا عند ذلك، فهم كثيراً ما يذكرون أمثلة لأجسام فيها، لان صحة الشاهد أو المثال عندهم أصل كل شيء، أما جماله وما يبحث في النفس من احساس أو شعور فني قلم يوجهوا عنايتهم اليه. ولعل اهتمام الناظرين منهم بالاختصار وتلخيص الكتب للتقدمة كان سبب الالفاظ من الالمثلة والشواهد والاكتفاء بالثقلها وأقصراها وما ينسجم مع أدواتهم التي سيطرت عليها النزعة العقلية، وغير مثال على ذلك كتاب التلخيص والتعظيم للقرظيني (- ٥٧٣٩) الذي أوجز فيه مباحث البلاغة التي ذكرها لسكاكي (- ٥٦٢٦) في كتابه «مفتاح العلوم» فأصبحت جافة لا تنفع كثيراً مما اضطره إلى شرح كتابه بالإيضاح ودفع الآخرين كالقفازاني وبهاء الدين السبكي وعصام الدين الاسفراييني وغيرهم إلى شرحه أيضاً.

وشاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية حيث يتغلغل خليط من الفرس والترك والفتر. وكانت خوارزم اكبر المراكز التي ظهر فيها

(١) المقولة: سنة من الصفات تشمل كل الشيء كالمقولات التي: الكلية والكلية. والاصفاة والكلان والزمكان والوسع والشد والصلب والانتقال.

انقلب هذه المدرسة كصخر الدين الرازي (- ٨٦٠٦) صاحب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » والسكاكي صاحب « مفتاح العلوم » .

وأهم كتبها « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر الجرجاني و« نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » للرازي و« مفتاح العلوم » للسكاكي و« اللصاح في اختصار المفتاح » ليدر الدين بن مالك و« تلخيص المفتاح » و« الايضاح » للقرظيني و« عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح » ليهاء الدين السبكي و« المطول على التلخيص » و« المختصر » لسعد الدين التفتازاني و« مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح » لابن يعقوب المغربي، وغيرها من شروح التلخيص الاخرى .

للمدرسة الادبية :

كان القرآن الكريم من اهم العوامل التي طبعت بحوث البلاغة بطابع ادبي يعتمد على اللذوق الرفيع قبل اعتماده على التحديد والتقسيم . وكان لكتساب والشراء أثر واضح في البلاغة ، فقد صنفوا كثيراً من موضوعاتها بصيغة ادبية لما امتازوا به من أدب غزير وذوق سليم : وكانت نتيجة تلك العوامل ان اتجهت البلاغة منذ عهد مبكر اتجاها ادبيا وسلكت طريقاً بعيداً عن المدرسة الكلامية ، وكانت لها خصائص واضحة تميزها عن المدرسة الاخرى ، ومن ذلك انها لم تهتم كثيراً بالتحديد والتقسيم وان جنت إلى ذلك فعل غير تعمق وتفاذ والتزام لتصحيح النظم للأصول المنطقية ولم تهتم بالنقائس المنطقية ومسائل الفلسفة بل تلبثتها وحملت عليها وحراريتها ، وكان ابن الاثير أحد أقطابها من الذين أنكروا ادخال الاساليب الفلسفية في البحث ، قال : « اعلم ان ذلك الحصر كلي لا جزئي ، ومحال ان تحصر جزئيات اللغوي وما يفرغ عنها من التعريفات التي لا نهاية لها : لا جرم ان ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا ينتظر اليه فان البيهقي الجاهلي راعي الابل ما كان يمر

شيء من ذلك بلهيمه ولا يخطر بباله، ومع هذا فإنه كان يأتي بالسر الحلال إن
قال شعراً أو تكلم تكلماً (١).

ومن خصائص المدرسة الأدبية استعمال المقاييس الفنية في الحكم على الأدب
ولذلك تجد هامرة تستطيع التعليل ومرة لا تستطيع ذلك، وترجمه إلى النوق والاحساس
الفني. ومن ذلك أن أسلوب كتبها سهل لا يحتاج إلى عناء كبير في فهمه كما يحتاج
في قراءة كتب المدرسة الأخرى، وسبب ذلك أن معظم رجالها عاشوا في بيئات
حرية كالعراق والشام ومصر، وكانوا إلى جانب ذلك شعراء أو كتاباً. أما رجال
المدرسة الكلامية فقد عاشوا في بيئات أعجمية فقلبت على كتبهم العجمة ولم يكونوا
أدباء بل كانوا من الفلاسفة والمتكلمين:

وأصرف رجال المدرسة الأدبية في ذكر الشواهد والأمثلة، وكانوا يذكرون القاصدة
أو التعريف ثم بأرن الأمثلة الكثيرة. ولم تكن الأمثلة مقصورة على الجملة أو بيت
الشعر وإنما تعدتها إلى القطعة الشعرية والرسالة الأدبية. ويتضح هذا في جميع كتب
المدرسة، فابن المعتز - مثلاً - يذكر تعريف الاستمارة أو التجنيس ويورد بعد
ذلك أمثلة كثيرة ويفرق بين الحسن والرديء. وتبعه البلاغيون الآخرون في هذا
النهج كأبي حلال العسكري في كتاب الصناعتين، وابن رشيق في «العمدة» وأسامة
ابن منقذ في «البدیع في نقد الشعر»، وابن الأثير في «المثل السائر» و«الجامع الكبير»،
وابن أبي الإصباح النصري في «تحرير الشعر».

وقد سادت هذه المدرسة في المناطق الوسطى من العالم الإسلامي كالعراق والشام
ومصر وشمال أفريقيا.

ولعمري كتبها التي تضمنت خصائصها كتاب «البدیع» لابن المعتز و«كتاب
الصناعتين» لعسكري و«العمدة» لابن رشيق و«در القاصحة» لابن سنان الخطابي
و«أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني و«البدیع في نقد الشعر» لابن منقذ، و
«المثل السائر» و«الجامع الكبير» لابن الأثير و«دبج القرآن» و«تحرير الشعر»

(١) المثل السائر ج ١ ص ٢١٠.

لابن أبي الاصمغ و حسن الترمذى إلى صناعة الترمذى لشهاب الدين الخليلي .
هاتان هما المدرستان البلاغيتان ، وقد كانت لكل واحدة منهما خصائص عامة ،
ولكن هل يمكن وضع فاصل بين الذين اتجهوا إليها عقليا والذين اتجهوا إليها
ادبياً ليس من الممكن ذلك لأن البلاغي الواحد كثيراً ما يمزج بين الطريقتين
ويستفيد من الاتجاهين ، فالجاحظ مثلاً - وهو رأس فرقة اعتزالية سميت
الجاحظية - نراه يميل إلى الفن ويحكم القوق في كثير من الأحيان ، وأبو هلال
السكري مع تأكيده أنه لن يتبع طريقة الشكلميين نراه يتجه نحوهم في تسمياته
وتبويه ويجري في مضمارهم ويخدم أغراضهم . وكان عبد القاهر الجرجاني يميل
مرة إلى المدرسة الكلامية في كتابه «دلائل الاعجاز» ويتجه إلى المدرسة الأدبية في
كتابه «أسرار البلاغة» ، وهو في كتابه الأول يجادل جدلاً منطقياً فيكرر أساليب
أهل الجدل كقولهِ : «إن قلتم فلنا...» و «كيف لا يكون الأمر كذلك...» و
صاهر إلا كذلك وكذا...» وهو في كتابه الثاني أدب يصد إلى التحليل الفني وإبراز
ما في الكلام من بلاغة وجمال لأنه لا يريد أن يدافع دفاعاً عقلياً كما دافع عن القرآن
في كتابه «دلائل الاعجاز» .

ومن جمعوا بين الطريقتين في كتاب واحد يحيى بن حمزة العلوي (- ٥٧٤٩هـ)
صاحب «الغراز المنقح» لأسرار البلاغة وحقائق الاعجاز ، فهو في القسم الأول
منه سير على منهج أدبي واضح فيه التحليل والاكثار من الأمثلة ، وهو في القسم
الثاني من الكتاب يتبع طريقة المدرسة الكلامية في تصنيف موضوعات البلاغة وعرضها ،
وفي الجدل وتقديم الأدلة ، وقد يكون سبب ذلك أنه في هذا القسم تعرض لاعجاز
القرآن ، وهو مما يدفع الباحث إلى النظر العقلي وردّ الشبهات بالأدلة والبراهين .
هذا ما كان من أمر البلاغة العربية قديماً ، أما اليوم فإن للنهج الحديث يتطلب
الاستفادة مما سبق لبناء بلاغة جديدة تعتمد على ذوق العصر وتستند إلى مظاهر من
ادب وفنون ،

الفصل الثاني
 الفصاحة والبلاغة
 للبحث الأول
 الفصاحة

لغة الفصاحة ، مما شاع وعرفه العرب بضمومه القوي قبل أن تأسد الألفاظ
 دلالتها الثابتة ؛ ونجد لها في المعاجم دلائل :
 الأولى : لغوية تقوم على المعنى الأول الذي وضعه العرب واستعملوه قبل
 أن تظهر علوم البلاغة والتقد . ففي لسان العرب : يوم منصح : لا ضم فيه ولا
 فر .

أنصح ابن : ذهب الباعة . فصح ابن : إذا انحلت عنه الرغبة : قال نضلة
 السلمي :

وأوه ساذجوه وهو عسوق وينفع أهله الرجل القبيح
 فلم يشقوا مصائبه عليهم ونحت الرغبة ابن الفصيح
 أنصحت الشاة والشاة : خلص لها . أنصح الصبح : بدأ ضوءه واستبان ،
 وكل ما وضع فقد أنصح ، وكل واضح منصح . ويقال : قد فصحك الصبح ،
 أي بان لك وغلبك ضوءه . فصحه الصبح : عجم عليه .

الثانية : دلالة تقرب من المعنى الاصطلاحي الذي تعارف عليه البلاغيون ،
 ففي اللسان : والفصاحة : البيان ، فصَّح الرجل فصاحةً فهو فصيح من قوم
 فصحاء وفصاح وفصَّح ، وامرأة فصيحة من نسوة فصاح وفصائح : رجل فصيح
 وكلام فصيح ، أي : بليغ .

لسان فصيح ، أي : علق . وقد جاء في الشعر في وصف النجم : أنصح ، يريد
 به بيان لقول وان كان بنير النورية ، كقول أبي النجم :
 أنصح في آذانها فصيحاً

بني : صوت الحمار انه اصجم ، وهو في آذان الأذن فصيح بين :

وفصيح الاصمعي فصاحة : تكلم بالعربية وفهم عنه . وقيل : جاءت لفظة حتى لا يلحن . أفصح كلامه فصاحا وأفصح تكلم بالفصاحة وكذلك الصبي . يقال : أفصح الصبي في منطقته فصاحا اذا فهمت ما يقول في أول ما يتكلم . أفصح الأغمم : اذا فهمت كلامه بعد غمته . أفصح عن الشيء فصاحا اذا بينه وكشفه : فصيح الرجل ونفصح اذا كان عربي اللسان فأزاد فصاحة . وقيل نفصح في كلامه وتفصيح : تكلف الفصاحة . يقال :

ما كان فصيحاً ولقد فصح وهو اللين في اللسان والبلافة : والتفصيح استعمال الفصاحة وقيل : تشبهه بالفصحاء .

وقيل : جميع الحيوان ضربان : أعجم وفصيح ، فالفصيح كل لاطق ، والاصم كل مالا يتلظ .

الفصيح في اللغة للتطيق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رذيله : أفصح الكلام وأفصح به وأفصح عن الأمر : الفصيح في كلام العامة : اللرب . وفي هذا يتضح معنى البيان والظهور في كلمة والفصاحة ، ليس هذا المعنى بعيداً عن الدلالة الأولى ولا عن المعنى الذي اصطاح عليه علماء البلافة ، وهو رقة الالفاظ وجمالها ، وبيان التعبير ووضوحه .

في القرآن والحديث :

لو مفيئنا نبحث عن لفظة « الفصاحة » في ثرائنا لرأيناها في قوله تعالى حكاية عن نبيه موسى - عليه السلام - : «وأنبي هرون هو أفصحُ مني لساناً» (١) وفي الحديث النبوي الشريف : «أنا أفصح لعرب يدي من قرين» (٢) ووظفر

(١) القصص : ٣٤ .

(٢) قال عبد الله بن رواحة في شرح الرسول - صل الله عليه وسلم - : لو لم تكن في آيات نبينا كانت فصاحت نبيك بمثلهم .

له بعد ذلك فصيح وأعجم ، وفرض أصحاب الحديث بأن النبي محمداً - صل
الله عليه وسلم - أراد بالقصيح بني آدم ، وبالاعجم البهائم (١) :

ولا تخرج لفظة القصاحة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عن
معناها القوي وهو الظهور والبيان . وحينما دخلت هذه اللفظة للدراسات البلاغية
والفقدية ارتبطت بلفظة البلاغة وصارت صنوها ، وأصبح رجال البلاغة الأوائل
لا يفرقون بينهما ، بل لم يروا بأساً في أن يستعملوا أحدهما مكان الآخرى كما
فعل أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (- ٨٢٥٥) الذي لم يضع حداً فاصلاً بين
القصحين وإنما اجراءهما بمعنى واحد في مواضع كثيرة من كتابه « البيان والتبيين » ،
الجاحظ :

عرف الجاحظ البلاغة بقوله : « وقال بعضهم - وهو أحسن ما اجبتناه وهو كماه :
لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا
يكون لفظه إلى سمك أسبق من معناه إلى قلبه » (٢) : وفي هذا التعريف التقاء
القصاحة بالبلاغة ، والنص على امتزاجهما .

والقصاحة - عنده - واسعة المعنى ، ولذلك نراه يتحدث عنها وعن الالفاظ
كثيراً ، وتعدّ اشاراته في كتابه « البيان والتبيين » من أوسع ما وصل اليها من عهد
التنوين الأول . ويرى ان الالفاظ جديرة بالرعاية والاهتمام ، يقول : « وقد يستخف
الناس القاطن ويستعملونها وغيرها أسبق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم
يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العذاب أو موضع القفر للندم والعجز للظلم ،
والناس لا يذكرون السب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك
ذكر الطمر ، لانك لا تجد القرآن يلقظ به إلا في موضع الانضمام والعمامة وأكثر
الخاصة لا يصلون بين ذكر الطمر وبين ذكر القبيح ، ولقظ القرآن الذي عليه قول

(١) النهاية في تريب الحديث والاطر ج ٣ ص ٤٥٠ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٥ .

الله إذا ذكر الإبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سجع سموات لم يقل الأرضين ،
 ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً . والجاري على أنواء العامة
 غير ذلك لا يتفقون من الالفاظ ما هو أحسن بالذكر وأولى بالاستعمال (١) .
 وتكلم على تناثر الحروف فقال : ولما في القرآن الحروف فإن الجيم لا تقارن
 القاء ولا القاف ولا القاء ولا النين بتقديم ولا بتأخير ، والزاي لا تقارن الظاء ولا
 السين ولا الصاد ولا الدال بتقديم ولا بتأخير . وهذا باب كبير وقد يكفى يذكر
 القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجرى (٢) .

وتحدث عن تناثر الالفاظ فقال : فومن ألفاظ العرب ألفاظ تتناثر وإن كانت
 مجموعة في بيت شعر لم يستعمل المنشد انشادها إلا بحض الاستكراه ، فمن ذلك قول
 الشاعر :

ولم حارب بمكان ظسرو وليس فسرب قبر حرب قبر
 ولما رأى من لا علم له أن أحداً لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات
 في نسق واحد فلا يتنوع ولا يتجلىج ، وقيل لم : إن ذلك إنما اعتراه إذا كان من
 اشعار الجن ، صدقوا بذلك .

ومن ذلك قول ابن سيبر :

لم يهرها والحمد لله شسي وانكتت نحو عززي فكمم ذهول
 فلفظ الصف الأخير من هذا البيت فالك مستجد بعض القاطن بترأ من بعض (٣)
 وينبغي أن تكون الالفاظ متماثلة متلازمة كي لا يقع بينها التناثر فتصبح كأولاد
 عنة ، يقول : هو أنشدني أبو العاصي ، قال : أنشدني خلف الأحمر في هذا
 اللحن :

(١) البيان والبيان ج ١ ص ٢٠ .

(٢) البيان والبيان ج ١ ص ٦٩ .

(٣) البيان والبيان ج ١ ص ٦٥ .

وبعض فربض تقوم أولاد حكمة بكبد لسان الشاطئ الشمة (١)
وقال أبو العاصي : وأشدني في ذلك أبو اليلداه الرباعي :

وشمر كبير الكيش فرق بينه لسان دحسي في القربض دحيل
فانه يقول : اذا كان الشعر مستكرها وكانت الفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها
مالملا لبعض كان بينها من الشار ما بين اولاد العكلات . واذا كانت الكلمة ليس
موقعا ان جنب أختها مترخياً مساوقا كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر
مؤونة .

قال : وأجود الشعر ما رأته متلاحم الاجزاء سهل المخرج ، فتعلم بذلك انه
قد أفرغ أترافا واحداً ، وسبك سبكا واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري
على اللسان .

ولما قوله : «كبير الكيش» فاننا ذهب الى أن بحر الكيش يقع متفرقا غير مؤلف
ولا متجاور ، وكذلك حروف الكلام واجزاء البيت من الشعر تراها متفقة مسا
ولينة العاطف سهلة ، وتراها مخلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان
وتكده ، والآخرى تراها سهلة لينة ووطية مواتية ، مسلة النظام خفيفة على
اللسان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف
واحد ، (٢) .

ويرى أن اللفظ كما لا ينبغي أن يكون حائبا ومالقا سويا ، فكذلك لا ينبغي
أن يكون غريبا وحشيا الا أن يكون التكلّم بدويا أعرابيا ، فان الوحشي من الكلام
يقهه الوحشي من الناس كما يقهه السوقي رطانة السوقي (٣) .
لقد اهتم الجاحظ بالانفاذ اهتماما عظيما وأولاه عناية كبيرة ، وقد دفعه
هذا الاهتمام الى أن يقول : «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي

(١) لولاد حمة : سم بنو رجل واحد من لهيات شمر .

(٢) لهيات ج ١ ص ٦٦ .

(٣) ينظر لهيات ج ١ ص ١٤٤ .